وإذا كان قد رحل ماشياً ورأسه ملفوف بمنديل واقٍ فقد كـان ينبغي أن يبلغ المدينة في أربعة أيام أو خمسة. إلا أن فيضاناً حدث في «دجلة» فحطّم الجسور وأغـرق الطرق فـطال أمَد الـرحلة. ولم يبلغ المدينـة إلّا في اليـوم العـاشر عنـد غروب الشمس ليضيع على الفور في الـزحام اليـومي. فقد كـان من عادة أغنى سكان (المدائن) أن يقتنوا عدداً من البهائم، مطايـا وقطعـاناً كثيفـة كان الـرعاة العبيـد يقودونها كـل صباح لـترعى خـارج الأسـوار بـاتّجـاه مـراعي (نصـير) أو (ماهوزيـه) ويعودون بهـا في المساء سـادّين أبواب المـدينة بسحـابة من الصـوف وعصيّ الرعاة والروائح.

وكان على ابن (بابل)، كما على كثـير غيره من المسـافرين، أن يقتفي أثـرهم مُدافَعاً وساعلاً سُعالاً خفيفاً وقد أطاشه صخبُ ألصقُ بالمُدُن لأن الشوارع التي تفـتر ظهراً كـانت تعـود إلى الانتعـاش عنـد اقـتراب الغسق والشمسُ تميـل إلى الغروب. وكان الكَتَبة والحمّالون والجنود والجمّالون يستأنفون تدافعهم إلى العمل بعد القيلولة ثم ينضمّ إلى الزحام عدد من المتنزّهين كان يزداد في كل ساعة على طول الضفاف حيث تنتظرهم مراكب التجّـار المتجوّلـين عارضـة عليهم الحُصُر والـطواقي وبعض الأشياء النفيسـة. وكانت قـطع النقود تتسـاقط قبضـاتٍ من كيس إلى آخر محدثة جلبة. هكـذا كانت (المـدائن). ولم تكن تُقْصَد للتنـزّه من أجل هوائها المنعِش، بل للتبختر وعرض الأطفـال المكتنزين والخـدم، ولا سيما الـزوجـات اللواتي يفضّـل أن يكنّ بيضـاوات بلون اللبن وممتلئـات ومُثْقَـلات بـالعقود عـلى النحور وبـالأساور مـرصوصـات مثنى أو رُباع إلى المِـرفق. وكـان النـاس في هذه المـدينة يحملون معهم كـلّ ما يملكـون وكلّ مـا هم أو يزعمـون أنّهم. وإذا حدث أحيانـاً أن أُلقي بأحـد هذه الأسـاور إلى متسوّل متهـالك إلى جدار معبد فإنما لأجل توسيع عيون الناس من فرط الدهشة.

وعندما كانت السماء تزداد قتامـاً وينتهي أمَد النـزهة كـان القوم يعـودون إلى منازلهم مع البهائم والناس للأكل والشرب، إذ لم تكن الحانات إلا للمسـافرين وبعض الأشقياء. فكل بلديّ يحـترم نفسه كـان يسكر في الـواقع داخـل منزلـه مستلقياً، مستلقياً على الدوام للشراب يحيط به أشخاص أعزّاء أو رائقون. وهنا